سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

خطبة جمعة

حقيقة الابتلاء

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشَّيخُ لم يراجع التَّفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

[الخطبة الأولى]

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبدُ الله ورسولُه وصفيه ومجتباه وخليلُه، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه من اهتدىٰ بهداهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛

فيا أيها المؤمنون اتقوا الله حقَّ التقوىٰ، عظِّموا أمر الله، عظموا نهي الله؛ باستجابتكم لأوامر الله وبالبعد عن مناهي الله، فبذلكم تكون التقوىٰ.

أيها المؤمنون.. إنّ الله جل جلاله بيده ملكوت السمٰوات والأرض، فله الملك كله يقدِّر ما يشاء علىٰ عباده، فيفيض عليهم الخيرات ويمنع عنهم المسرّات، يفيض تارة ويمنع تارة، يبسط الرزق لمن يشاء، ويَقْدِرُ علىٰ آخرين أن يضيق. وهذا ابتلاء من الله جل وعلا.

ولذلك الابتلاء حِكَم عُليا جليلة، يجب علىٰ المؤمنين أن يرعوها وأن يتعلموا ويعلموا الأصول الشرعية التي جاءت في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ التي تبيِّن حقيقة الابتلاء والقصد منه، كما أخبر الله جل وعلا بذلك في قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء:٣٥]، فأخبر جل وعلا أنه يبلو النّاس بالشر تارة وبالخير تارة، وكل ذلك فتنة، يكون فتنة لمن أصابه الخير والسّراء، ويكون فتنة لمن أصابه السّوء والضرَّاء، وكل ذلك داخل في ابتلاء الله؛ أي في اختبار الله للناس.

وعلىٰ هٰذا فالناس أفرادٌ وجماعات تارةً يُبتلون بالخير وتارة يبتلون بالمصايب، وكل ذلك موافق لحكمة الله جل وعلا، فهو الذي يقدّر ما يشاء، ويقضي بما يشاء، له الملك كله وله الحُكْم كله، كل ما يجري في ملكوته بدون استثناء، فإنما هو صادر عن أمره موافق لحكمته موافق لمشيئته جل وعلا، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

فطائفة من الناس يُفيض عليهم الله -جل وعلا- الخيرات والنِّعم والمسرات، والقرآن العظيم وسنة النبي ﷺ يبيِّنان لنا أنّ ذلك له حكمة كما قال جل وعلا: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[الجن]، فمن أُفيضت عليه المسرّات والخيرات وأُجزلت له النعم وأُفيض عليه ما يسره يجب عليه أن يقف وقفة متأمِّلًا متدبِّرا في هٰذه النعم التي سِيقت له.

فينظر أولا هل حاله حال المستقيمين؟ هل حاله حال الذين استقاموا علىٰ الطريقة؟ هل حاله حال المؤمنين بالله الذين استجابوا لله فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه؟ فإن كانت حاله تلك من الاستقامة والإيمان والصلاح، وأنعم الله عليه من الخير، فليعلم أنّ ما أعطاه الله -جل وعلا- له ليبلوه وليفتنه هل يشكر تلك

النعم أم لا يشكرها؟

فإنّ من الناس من كانت أحوالهم مستقيمة، فلما أُفيض عليهم المال وكمُلت لهم النِّعم انحرفوا وضلوا ولم يشكروا الله علىٰ نعمه الجزيلة وعلىٰ ما وسَّع وأفاض من الخيرات، فمن كان مستقيما وكانت حاله في رغدٍ من العيش وسلامة وصحة وأمن ونحو ذلك، فليعلم أن ذلك اختبار هل يشكر أم يكفر، كما أخبر الله -جل وعلا- عن سليمان عليه السلام حيث قال بعد أن أُنعم عليه: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[النمل]، بعد أن أُوتي له بعرش بلقيس وتمَّت له تلك النعمة، عَرَفَ أن ذلك ابتلاء، وأنّ ذلك ليُختبر هل يشكر، أو يظن أنه إنما أوتيه بقواه وأنه إنما أوتي ذلك بمحض قوته وتفكيره.

صِنْفٌ آخر من الناس يبتلىٰ بالنعم وتفاض عليه الخيرات، يجب عليه أن ينظر في نفسه إذا كان غير مؤمن بالله الإيمان الكامل؛ إذا كان مفرِّطا في الواجبات، مفرطا في حقوق الله -جل وعلا- وبحقوق الخلق، مقبلا علىٰ المحرمات لا يرعىٰ لله حرمة، ولا يرعىٰ للخلق حقّ، وأُنعم عليه بالنعم، فليعلم أنما ذلك ابتلاء واستدراج من الله كما ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد وهو مقيم علىٰ معاصيه فليعلم أن ذلك استدراج**»[1] لأنه استدراج حيث قال تعالىٰ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[2] إن الله جل جلاله يغار علىٰ حرماته، ومع ذلك يُفيض الخير علىٰ من لم يستقم علىٰ أمره تارة، ليبتليه وليختبره، ثم ليعلم أولئك أن ذلك إنما ذلك استدراج؛ لكي ينظر الناس في حالهم بعد أن تأخذهم العقوبة.

والمؤمن عليه أن يرجع إلىٰ ربه دائما بما أعطاه الله من النعم وأفاض عليه من الخيرات، فإن كان مؤمنا سليم الإيمان مقيما علىٰ الطاعات مبتعدا عن المحرمات سعىٰ في شكر ذلك في استعمال النعم في مراضي الله، وبأن يضيفها وينسُبها إلىٰ من أولاها وأسداها، ثم إنه ينعم بها علىٰ من حُرمها، من كان علىٰ غير استقامة؛ علىٰ معصية، علىٰ موبقات، وعلىٰ تفريط في الواجبات، وأُنعم عليه فليعلم أنّ ذلك استدراج، فعليه أن يستيقظ من الغفلة وأن يستيقظ من السِّنَة التي غشيت عقله وعلت فؤادَه، فإنّ المرء إذا أصابته الغفلة خسر ثم خسر خسرانا مبينا.

الطائفة الأخرىٰ من الناس لا تبتلىٰ بالنعم، إنما تبتلىٰ بالمصائب من الله -جل وعلا- بأنواع المصائب؛ إما بنقص في الأموال، وإما بمصائب بدنية، وإما بمصائب عامة أو خاصة، وتلكم المصائب موافقة لحكمة الله، موافقة لقَدَر الله، موافقة لسنّة الله التي أمضاها في خليقته، منذ خلق السمٰوات والأرض، ومنذ دبَّ آدم علىٰ وجه الأرض.

---

(١) «مسند أحمد» (تحقيق أحمد شاكر وحمزة الزين) حديث رقم (١٧٢٤٤)، عن عقبة بن عامر، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤١٣).

(٢) سورة: الأعراف الآيات (١٨٢-١٨٣)، القلم الآيات (٤٤-٤٥).

فتارة يكون الذي ابتلي بالمصائب ابتلي بالأمراض، ابتلي بالموت، ابتلي بالجوع، ابتلي بنقص المال، تارة يكون مؤمنا فردا أو جماعة أو أمة.

تارة يكون مؤمنا مسددا كما حصل في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث ابتلي الناس في وقته وهم الكملة المنتخبون، ابتلي الناس في وقته بعام المجاعة المشهور الذي سُمِّي عام الرّمادة، كان الناس لا يجدون ما يأكلون وذلك لينظر الله -جل وعلا- في أولئك بذلك الابتلاء وذلك الاختبار، هل يُقبلون علىٰ ربهم، ويعلمون أن بيده ملكوتَ كلِّ شيء، وأنه -جل وعلا- ماضٍ حكمُه في خليقته، ثم إنهم يبذلون ويضحّون أم إنَّهم يشحّون علىٰ أنفسهم وعلىٰ إخوانهم.

وأنواع من الاختبار والابتلاء؛ بل وكما ابتلي رسول الله ﷺ وصحابته بما حدث لهم في أُحُد حيث قال الله جل وعلا لهم: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾[آل عمران:١٦٥]، أولئك ابتلوا واختبروا بأنواع من المصائب المؤلمة مع ما هم عليه من السّداد في الإيمان وكمال الأقوال والأعمال والبعد عن الشّرك والبدع والبعد عن المحرمات صغيرها وجليلها إلاّ ما شاء الله أن يقع، أولئك كانت لهم ابتلاءً واختبارا لإيمانهم؛ هل يصبرون علىٰ ذلك أم يتشككون في يقينهم وفي إيمانهم؟ كما يحصل لبعض السفهاء ممن ضَعُف دينُه وضعف إيمانه وقلّ يقينه.

طائفة أخرىٰ من الناس تبتلىٰ بالمصائب من عند الله -جل وعلا- بأنواع المصائب إما بِغَرَقٍ يحيط بهم من فوقهم من السماء، وإما بأن تُزلزل الأرض من تحتهم، ثم إنّهم إذا كانوا علىٰ نقص من الأموال ونقص في الأنفس ونقص من الثمرات، فنظروا في حالهم فوجدوا أنهم مفرّطون في أمر الله، مفرطون في حق الله، مفرِّطون في أعظم الحقوق لله وهو توحيد الله بأن يظهر الشِّرك فيما بينهم ولا ينكرونه، تظهر المحرمات ولا ينكرونها، يشيع الفحش والفجور ولا ينكر بل يُقَرّ، ويتخلّف الناس عن أداء فرائض الله.

إذا كانت تلك الحال وأصابهم ما أصابهم من عذاب الله أو من الابتلاء من الله جلّ وعلا، فقد يكون ذلك في حق بعض المؤمنين الذين أصيبوا بذلك يكون ابتلاء واختبارا، وفي حق الذين تنكبوا عن صراط الله وعن دين الله وغشوا المحرمات والكبائر، وما هو أعلىٰ من ذلك يكون في حقهم عقوبة من الله -جل وعلا-، كما أخبر الله -جل وعلا- عن قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، حيث قال جلّ وعلا عنهم لما دخلوا جنتهم قالوا متعاهدين فيما بينهم: ﴿أَنْ لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾[القلم] حَرَموا الناسَ حقوقهم، فكانت تلك معصية في حقهم، وكان ذلك مؤذن ببلاء من الله جل وعلا، قال تعالىٰ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾[القلم] الآيات، حتىٰ قالوا معترفين: يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين. لما ظلموا أصابتهم العقوبة.

هٰذه أنواع طوائف الناس في المسلمين ممن ابتلوا بأنواع المصائب؛ بل وممن ابتلوا بأنواع المسرات والخيرات.

وهٰذه هي الأصول الشرعية إن أصابت المصائب المؤمنين فليصبروا وليحتسبوا، وإن أصابت من فرّط في أمر الله فليعلم أن ذلك نوع من العقوبة يخوِّف اللهُ به عباده المؤمنين كما أخبر عَلَيْهِ الصَّلاَةُ

وَالسَّلَامُ لما خسفت الشمس في عهده قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تنخسفان بموت أحد ولا لحياته**»، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يخوف الله بهما عباده، إن الله ليغار أن يزني عبده، إن الله ليغار أن تزني أمته**»[1] وهٰذا من رسول الله ﷺ بيانٌ للأمة لكي تعلم أن الآيات موافقة لحكمة الله، وكون أن لها أسباب يعلمها بعض البشر لا ينافي أنّ لها الحكمة البالغة من الله فما من شيء يحدث إلا وهو من الله موافق لحكمة الله ماضٍ فيه أمر الله جل وعلا.

أيها المؤمنون اعتبروا بهذه الأصول الشرعية كلٌّ بحسب حاله:

من كان ذا نعمة فليشكر نعمة الله، وليستقم علىٰ أمر الله.

ومن كان ذا مصيبة فليتفكر في نفسه:

إن كان مقيما علىٰ الإيمان فليصبر وليحتسب، وليعلم أن ذلك زيادةٌ في إيمانه واختبار لتصديقه ويقينه.

ومن كان علىٰ ضدّ ذلك، فليعلم أن تلك عقوبة يعاقب بها من خالف أمر الله فهي إما ابتلاء وإما عقوبة.

نسأل الله -جل وعلا- أن يجنِّبنا المكاره ما ظهر منها وما بطن، وأن يجنّبنا الفتن في أنفسنا وفيمن نحبّ وفي بلادنا وفي بلاد المسلمين بعامة.

واسمعوا قول الله -جل وعلا- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[محمد].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذّكر الحكيم، أقول قولي هٰذا وأستغفر الله لي ولكم من جميع الذّنوب والخطايا، وأتوب إليه، فاستغفروه حقّا وتوبوا إليه صدقا إنّه هو الغفور الرحيم.

[الخطبة الثانية]

الحمد لله علىٰ إحسانه، والشكر له علىٰ توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبد الله ورسولُه وصفيّه وخليله، أشهد أن لا إلٰه إلا الله شهادة نزدلف بها إلىٰ جنة الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله شهادةً نقْتربُ بها من رسول الله ﷺ، وعلىٰ آله وصحابته وعلىٰ من تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛

فإن أحسنَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هدي محمد بن عبد الله، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وعليكم بالجماعة فإنَّ يد الله مع الجماعة، وعليكم بتقوىٰ الله -عز وجل- فإن بالتقوىٰ فخارَكم ورفعتكم وسعادتكم في هٰذه الدنيا وفي الآخرة العظمىٰ، فاتقوا الله حق تقاته

(١) أخرجه البخاري، حديث رقم (١٠٤٤). ومسلم، حديث رقم (٩٠١).

ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

واعلموا -رحمني الله وإياكم برحمته الواسعة- أنّ الله -جل جلاله- أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه فقال قولا كريما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب].

اللّٰهمَّ صلِّ وسلّم وبارك علىٰ عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، وارض اللّٰهمَّ عن الأربعة الخلفاء الأئمة الحنفاء الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وعنَّا معهم بعفوك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

اللّٰهمَّ أعزّ الإسلام والمسلمين، اللّٰهمَّ أعزّ الإسلام والمسلمين، وأذلّ الشّرك والمشركين، واحْمِ حوزة الدين، وانصر عبادك الموحِّدين، اللّٰهمَّ انصر عبادك الموحدين. اللّٰهمَّ انصر عبادك الذين يجاهدون في سبيلك لرفع لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، اللّٰهمَّ أيدهم بتأييدك وانصرهم بنصرك وقوّهم بقوتك يا قوي يا عزيز.

اللّٰهمَّ آمنا في أوطاننا، وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا، واجعلهم محكِّمين لشرعك متبعين لكتابك ولسنة ونبيك ﷺ.

اللّٰهمَّ إنّا نسألك أن ترفع عنا الربا والزنا وأسبابه، وأن تدفع عنا الزّلازل والمِحن وسوء الفتن ما ظهر منها وما بطن.

اللّٰهمَّ ارحم المستضعفين من المؤمنين في كل مكان، اللّٰهمَّ ارحم المستضعفين من المؤمنين في كل مكان، اللّٰهمَّ وأنزل عليهم بردا من اليقين وبردا من الإيمان تتسع به صدورهم وتلين به جلودهم إلىٰ ذكر الله.

اللّٰهمَّ إنا نسألك بأسمائك الحسنىٰ وصفاتك العلىٰ أن تُصلح قلوبنا وقلوب ذرارينا وقلوب أحبابنا وأهالينا يا كريم يا رحمان يا رحيم.

عباد الرحمٰن، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾[النحل]، فاذكروا الله العظيم الجليل يذكركم، واشكروه علىٰ النعم يزدكم، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون.